بين يدي
المعجزات الأحمدية

لا غروَ أن يكون محمد ﷺ مَحَطّ أنظار الوجود، وموضع تكريم الموجودات، وموئلَ أُنسِ الكائنات، ومَدارَ جدل المخلوقات.

فهو ﷺ رحمةُ الله المهداة إلى عبيده المعانين من عذاب التيه والضلال، وأنداء كرَمه فوق جدب النفوس وقحط الارواح، ولمسته الحانية علىٰ ظهر العالم المثقل بالهموم والاحزان.. وهو أيضاً العقل الرشيد للشعوب والامم، والعلمُ المنير لجهالات الأرض، والميزان الدقيق الذي به تصحّح موازين النفوس واختلاجات الضمائر والقلوب.

وكان لا بُدّ – وهو المرسَل من رب العالمين إلى العالمين طُرّاً – أن تُدركه عناية الله فتيسّر له سُبل التعارف والصداقة والودّ مع مخلوقات الله وموجوداته على اختلاف درجاتهم من سُلّم الحياة والوجود، ليتسنَّى له تبليغ الرسالة، وأداء الأمانة على الوجه الأكمل والأتّم.

فارتقب «الكُلُّ» مبعثَه، واستبشروا بقدومه، وأصاخوا له السمع، ومثّل البعض منهم بين يديه معلنين ولاءهم ومحبتهم، وشاهدين له بالنبوة والرسالة، فحفظتْ لنا سيرته العطرة مواقف ومشاهد وصوراً أخّاذة من تفجرات القلوب بالود والمحبة والتعاطف حتىٰ في الجمادات الصمّاء فضلاً عن ذوى الارواح من مخلوقات الله، وروت ما دار بينه وبينها من احاديث غاية في الجمال بلسان «الحال أو المقال» كما اعتمدته كتب الحديث

الصحاح مدرجةً ضمن معجزاته الكثيرة التي فاقت معجزات الانبياء عليهم السلام من قبله.

ولئن كان القرآن الكريم المذهل بنجوم بلاغته، وشموس أفكاره، وسماوات معانيه – هو اعظم معجزاته ﷺ، واخلدها على الزمن، واشملها واوسعها مدىً، واعلاها صوتاً، وأقواها تحدياً لعالَمي الانس والجن.. فانّ معجزاته الكونية الاخرى كان لها ايضاً شأنها الاعجازى المدوّى الذي هزّ اركان الكفر والجحود في عقول المنكرين المعاندين وقلوبهم، واثرها البيّن في زيادة اليقين وتثبيت اركان الدين لدى المؤمنين المصدقين.

وهذا النوع الأخير من المعجزات إنما هو انعطاف مفعم بالودّ والانس بين ذات الكون وذات محمد ﷺ، وهي تعنى – في جملة ما تعنيه – الشهادة من جزئيات الكون وكلياته على صدق نبوّته وصدق دعوته ورسالته، وكأنّ الله سبحانه وتعالىٰ – ملك الأزل والابد ومالك زمام الاشياء جميعاً – يومئ الى الكون أن:

كُنّ مع محمد.. وصدّق دعوتَه.. وأطِع إشارته.. وصرْ في خدمته.. لانه الحبيب المحبوب الذي اكرمته باعظم رسالة.. وشرّفته باكرم نبوة.

وفي هذا المعنى يقول «النورسى» في الاشارة البليغة الثالثة من رسالة «المعجزات الأحمدية»:

«إنّ معجزات الرسول ﷺ كثيرة جداً، و متنوعة جداً، وذلك لانّ رسالته عامّة وشاملة لجميع الكائنات، لذا فله في أغلب أنواع الكائنات معجزات تشهد له، ولنوضح ذلك بمثال:

«لو قدم سفير كريم من لدن سلطان عظيم لزيارة مدينة عامرة بأقوام شتّىٰ، حاملاً لهم هدايا ثمينة متنوعة، فإن كل طائفة منهم ستوفد– في هذا الحال – ممثلاً عنها، لاستقباله باسمها و الترحيب به بلسانها.

فكذلك لمّا شرّف العالم السفير الأعظم ﷺ لملك الازل والابد، ونوّره بقدومه، مبعوثاً من ربّ العالمين الى اهل الارض جميعاً، حاملاً معه هدايا معنوية، وحقائق نيرة تتعلق بحقائق الكائنات كلها، جاءه من كُلّ طائفة من يرحب بمقدمه، ويهنؤه بلسانه الخاص، ويُقدّم بين يديه معجزة طائفته تصديقاً بنبوته، و ترحيباً بها، إبتداءً من الحجر والماء والشجر والانسان، وانتهاء بالقمر والشمس والنجوم، فكأنّ كلاّ منها يردد بلسان الحال: أهلاً ومرحباً بمبعثك!»

* * *

ورغم هذا الاكرام العظيم الذي حظي به رسولنا الكريم ﷺ من لدن الله سبحانه وتعالى، بتسخيره الكون له، وخرقه لنواميسه لاجله، وربما تعطيل هذه النواميس لوقت معلوم، ولهدف مطلوب.. ورغم أن الكون غدا – بامر الله – رهن أشارته، وطوع إرادته، فانشقّ القمر بأيماءة من أصبعه.. رغم هذا كله فانه ﷺ كان وقّافاً عند هذه النواميس فلم يتجاوزها إلاّ في احوال معدودة، وحين الجأته الضرورة القصوىٰ لذلك. فبلغ من احترامه لهذه السنن، واكباره لها، أنه انكر علىٰ من قال: إنّ الشمس كسفت لموت ابنه إبراهيم عليه السلام، فخطب الناس ليقرر هذه الحقيقة، وليعلّم اصحابه الوقوف باحترام أمام هذه السنن قائلاً فيما رواه البخارى ومسلم: «ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى لا ينخسفان لموت أحد، ولا لحياته، فاذا رأيتم ذلك فادعوا الله، وكبّروا، وصلّوا، و تصدّقوا».

ولأنه القدوة والمثال للمسلمين في عصره وفي كل عصر، فأنّ هذه النواميس والسنن جرَت عليه كما تجرى على أى بشرى آخر.. فخسر المعارك وربحها، وجرح وكُسر رباعيته، وجاع وعطش، وصام وأفطر، وصلّى ونام، وتزوج النساء، ومشىٰ في الاسواق. الى آخر شؤونه البشرية الأخرى، كما هو مدوّن في كتب السيرة.

و« النورسي » يقرر هذا الأمر، ويعتبره الركن الأساس الذي ينبغى أخذه بنظر الاعتبار عند أي بحث في معجزاته ﷺ فيقول في « الاساس الاول » من الرسالة نفسها:

« إنّ جميع أحوال الرسول ﷺ، وأطواره يمكن أن تكون دليلاً على صدقه، وشاهداً على نبوته، إلاّ أنّ هذا لا يعني أن تكون جميع احواله وأفعاله خارقةً للعادة، ذلك لأن الله سبحانه و تعالى قد أرسله بشراً رسولاً، ليكون بأعماله و حركاته كلها إماماً و مرشداً للبشر كافةً، وفي أحوالهم كافّة، ليحقق لهم بها سعادة الدنيا والآخرة، وليبيّن لهم خوارق الصنعة الربّانية، وتصرف القدرة الألهية في الامور المعتادة، تلك الامور التي هي بحدّ ذاتها معجزات.

فلو كان ﷺ في جميع أفعاله خارقاً للعادة، خارجاً عن طور البشر، لما تسنّىٰ له أن يكون أسوة يقتدى به، وما وسعه أن يكون بأفعاله وأحواله وأطواره إماماً للآخرين، لذا ما كان يلجأ إلى إظهار المعجزات إلاّ بين حين وآخر، عند الحاجة، إقراراً لنبوته أمام الكفار المعاندين.. »

والسؤال الذي يراود الذهن هنا:

لماذا لم تستطع معجزات الرسول – رغم كثرتها – أن تُرغم الكفار على التصديق والأيمان، والتبرؤ من الكفر والجحود والعصيان؟

يجيب «النورسي» علىٰ هذا السؤال مقرراً إحدىٰ الحقائق الكبرى في حكمة التكليف في الحياة الدنيا، فيقول في خاتمة «الأساس الأول»:

«ولما كان الأبتلاء والاختبار من مقتضيات التكليف الألهي، فلم تعد «المعجزة» مُرْغمةً علىٰ التصديق – سواء أراد الانسان أم لم يرد – لأن سرّ الامتحان وحكمة التكليف يقتضيان معاً:

فتح مجال الاختيار امام العقل من دون سلب الارادة منه، فلو ظهرت المعجزة ظهوراً بديهياً مُلزماً للعقل – كما هو شأن البديهيات – لما بقي للعقل ثمة اختيار، ولصدّق أبو جهل كما صدّق أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، ولانتفت الفائدة من التكليف، والغاية من الامتحان، ولساوى – في القيمة – الفحم الخسيس مع الألماس النفيس».

ومع هذا الذي ذكرناه عن بشرية شؤون الرسول ﷺ، وكونه نموذج الانسان الحق بكل أبعاده، وكما ينبغي أن تكون عليه إنسانية الانسان الاصيلة.. يلزم ألاّ نوغل بعيداً في بشريته الىٰ حدّ الذهول الذي ينسينا نبوّته ورسالته، وألاّ نشتطّ في ابراز جوانب هذه البشرية العظيمة على حساب عظمة الرسالة والنبوة، كما فعل بعضُ مَنْ تصدىٰ للكتابة في سيرته ولا سيما في هذا العصر.

فماهية الرسول ﷺ ماهية سامية فريدة. فلا تقبل هذه الماهية الشريفة السامية التجزئة والانقسام، وأى عمل في تاريخه او سيرته يغفل هذه الحقيقة يأتى مبتوراً وناقصاً عاجزاً عن ابراز ملامح هذه الشخصية الفذّة كما هي عليه في الحقيقة والواقع.

و«النورسى» هنا يشير الى هذه الحقيقة في «الاساس السادس» فيقول:

«إنّ أحوال الرسول ﷺ وأوصافه قد بُينت على شكل سيرة وتاريخ. إلاّ أنّ اغلب تلك الأحوال والأوصاف تعكس بشريته فحسب، إذ إن الشخصية المعنوية لتلك الذات النبوية المباركة سامقة، وماهيته المقدّسة نورانية إلى حدّ لا يرقى ماذُكِرَ في التاريخ والسيرة من اوصاف واحوال الى ذلك المقام السامي والدرجة الرفيعة العالية، لأنه ﷺ على ضوء قاعدة «السبب كالفاعل» – أي في الأجر – تضاف يومياً حتى الآن – الى صحيفة كمالاته عبادةٌ عظيمة بقدر عبادات أمته بأكملها، وكما تحفّه نفحات الرحمة الألهية غير المتناهية بشكل غير متناه، وبقدرة غير متناهية، كذلك يناله يومياً دعاء لا محدود من ملايين لا تُحدّ من امته.

فهذا النبى الكريم المبارك ﷺ الذي هو أنبل نتائج الكائنات، وأكمل ثمراتها، والمبلّغ عن خالق الكون، وحبيب رب العالمين، لا تبلغ احوالُه واطوارُه البشريةُ التي ذكرَتْها كتبُ السيرة والتاريخ الأحاطة بماهيته الكاملة، ولا تصلُ الى حقيقة كمالاته.

فانّى لهذه الشخصية المباركة الذي كان كُلّ من «جبرائيل» و «ميكائيل» مرافقين أمينين له في «غزوة بدر» أن تنحصر في حالة ظاهرية أو ان تظهرها بجلاء حادثة بشرية كالتي وقعت له ﷺ مع «صاحب الفرس» الذي ابتاعه منه ولكنه أنكر عليه هذا البيع وطلب منه شاهداً يصدّقه فتقدم الصحابى الجليل «خزيمة» بالشهادة له.

فلئلاً يقع أحد في غائله الخطأ، يلزم مَنْ يسمع الأوصاف الاعتيادية البشرية له ﷺ أن يرفع بصره دوماً عالياً لينظر الىٰ ماهيته الحقيقية، والى شخصيته المعنوية النورانية الشامخة في قمة مرتبة الرسالة، وإلاّ أساء الأدب ووقع في الشبهة والوهم».

* * *

فالاعجاب بأية جزئية من جزئيات حياته، وبأى جانب من جوانبها، يقود بالضرورة إلى الأعجاب بكلية هذه الحياة، وبجميع جوانبها علىٰ الاطلاق، وإنّ الايمان بصدقه في مفردة من مفردات حياته اليومية يجرّ إلى تصديقه في كل ما يصدر عنه من قول وعملٍ. وقريش التي لا تكذبه فيما لو أخبرها أن وراء هذا الجبل جيشاً يريد أن ينقضّ عليها لانها لم تجرب عليه كذباً. بنبغي لها ألاّ تكذبه كذلك بما يخبرها به من اخبار السماء كما ورد في الأثر.

فصدقُه اعجازي منقطع النظير بكل مقاييس علوم الاخلاق والنفس والحكمة، وهو اعجازى ايضاً لأنه لم تنقطع شواهدُه وآثارُه بوفاته ﷺ. بل ظلّ تحقُقُه مستمراً وسارياً في الاحقاب والعصور، وسيظلُّ مستمراً وسارياً حتى قيام الساعة، فما أخبر عنه من امور المستقبلِ التي ستقع لأفرادٍ من صحابته وآل بيته ولأمته من بعده تتحققّ عياناً عصراً بعد عصر، ويوماً بعد يوم.

فمعجزاتُه ﷺ – إذن – ليست مقصورة علىٰ عصره، فهى تحمل – بسرّ صدقها – قوة إختراقٍ عجيبة تخترق بها الأزمان، وتواكب بها العصور. وهي بالحق الصراح الذي تنطوي عليه لها قدرة الحضور في كل وقت وحين. وبعنصر الخلود الذي يطبع رسالته – عليه السلام – تكتسب معجزاتُه صفة الدوام والاستمرارية والامتداد والتعاقب في الاجيال الآتية تعاقب الليل والنهار، فيشهدها المؤمنون بعيون خيالهم، ويحسّونها بحسّهم الأيمانى المرهف، ويبصرونها بأشواق بصائرهم، ويستعيدون وقائعها كما يرويها رجال الحديث الثقات الصادقون وكأنها تقع الآن، وتتشكل – امام أعينهم – في اللحظة والتو، فتؤدي وظيفتها اليوم – وكلّ

يوم – كما أدّتها في زمانه ﷺ في زيادة ايمان المؤمنين وفي زعزعة اوهام المنكرين.

وإنه لممّا يزيد هذا الامر توكيداً ما يطالعنا به علماء مرموقون في شتى العلوم من تصريحات – بين يوم وآخر – يعترفون بها بسبق الأسلام في إشارته الى كثير من حقائق العلم التي انتظرت البشرية اربعة عشر قرناً قبل أن تصل اليها، وإنّ هذه الاعترافات لممّا يورث قناعةً اعظم باستمرارية المعجزات وعدم توقفها إلاّ بتوقف الحياة نفسها.

و«النورسى» شرع في تصنيف رسالة «المعجزات الأحمدية» من منعزله علىٰ سفوح الجبال وفي أحضان الحقول والبساتين، ولم يكن في متناول يده أي مرجع في الحديث، فاعتمد في الاستشهاد بالحديث على ذاكرته وحفظه المذهل، ومع ذلك فهو يتحرّى – جهده – المتواتر والصحيح من كتب الصحاح الستة المعتمدة كما هي في حافظته، ونظرة متأملة إلى مئات الاحاديث التي اوردها هنا تزيدنا ثقةً برسوخ قدمه في «علم الحديث» وإلمامه الجيد بالسيرة ووقائعها، ورغم أنه كان ينتسخ من الذاكرة، ويقلب صفحات الحافظة، فأغلب الظن أنّ صيارفة «الحديث» ونَقَدَتَهُ لا يقعون على مغمز يمكن أن يغمزوا به قناة الرجل، وإن وجدوا فسبحان الذي لا يسهو ولا يخطأ.

ولا تفوتنى الأشارة الىٰ أنّ الرجل لم يقصر بحثه في الرسالة علىٰ المعجزات فقط، بل كان يعلق احياناً ويفسر حيث تقتضى المناسبة ذلك، ويأتي تخريجات لأحداث تاريخية مثيرة ومحيرة قد غابت عناً حكمة حدوثها، فأذا بهذه التخريجات تروى غلّة التساؤل، وتطفئ حرقة الألم الذي نحسه في قلوبنا، فأذا قرأنا تخريجاته أحسسنا بالراحة والاطمئنان.

وهو إذ يتناول «في الاشارة البليغة الخامسة» الفتنة الدموية الرهيبة التي أصابت الأمة الاسلامية في عصر الراشدين وخير القرون، يبين أن يد القدر تمسك بالأمم و تهزها هزاً عنيفاً، وتخضها خضاً لتتساقط ثمار عبقريتها، وتنتشر ازاهير حضارتها، وتتفرق بذور صلاحها الى أرجاء المعمورة محمولة على رياحِ الفتن واعاصيرها الهوج، وبذلك تظلُّ اعصاب الروح في الأمة مُستوفزة، ومشدودة و متيقظة لما يحيق بإيمانها من كوارث واخطار.

* * *